

حمامة السطوح

حمادة حامد محمود نور الدين

فوق سطح عمارةٍ قديمة في حيّ «السيدة زينب»، كان للأسطى رمضان برجٌ خشبيٌّ للحمام، يعلو عن الأسطح المجاورة كتاجٍ فوق رأسٍ متعب. ستّون حمامة، بيضاء ورمادية وبنفسجية، تعرف صوته كما يعرف الطفل صوت أمّه. إذا صفّر مرةً عادت، وإذا صفّر مرتين طارت، وإذا سكت وجلس صامتاً، حلّقت فوق الحيّ كلّه كغيمةٍ مفكّرة تنتظر أن يقرّر الرجل شيئاً.

لم يعرف أحدٌ في الحيّ متى بدأ يربّي الحمام، ولا لماذا. لكنّهم كانوا يعرفون شيئاً واحداً: كلّما اختفى أحدٌ من الحيّ، أو سافر ولم يترك خبراً، أو مات دون وداع، كانت تهبط على سطح بيته، بعد أيام، حمامةٌ بيضاء، تجلس على السور بصمتٍ حزين، وفي رجلها خيطٌ دقيق عليه ورقةٌ مطويّة.

كانت الأوراق تحمل رسائل لا تُرسَل. لا كلماتٍ مكتوبة بالحبر، بل أشياء تُقرأ بالقلب: عبارةً واحدة من صوت الغائب، أو ذكرى صغيرة من يومٍ مضى، أو رائحةً قديمة. ومن تلقّى الورقة صار يعرف أنّ هناك من لم ينسَه، رغم كلّ شيء.

أمّ سامي، التي فقدت زوجها قبل عامين، تلقّت يوماً حمامةً حطّت على نافذة مطبخها، فتحت الخيط، فشمّت رائحة التبغ الذي كان يدخّنه، وسمعت صوته يقول من بعيد: «الأكل ملح زيادة اليوم». ضحكت وبكت معاً، ثم أعدّت له طبقه كالعادة، وجلست أمامه تأكل بهدوء. ولم تحكِ لأحدٍ بما جرى، لكنّ جاراتها لاحظن أنّها عادت تغنّي وهي تنشر الغسيل.

كان الحيّ يسمّي رمضان «ساعي الغيب»، وهو لا يحبّ هذا اللقب أيضاً. يقول لمن يسأله: «أنا أطعم الحمام وأنظّف الأبراج. الباقي من عندهم.»

في يومٍ من أيام الخريف، صعد إلى سطحه شابٌّ غريب، قصير الشعر، يلبس قميصاً أبيض، وبيده ورقةٌ مطويّة. وقف يتأمّل الحمام ويقول: «جدّي كان يملك مثل هذا البرج.»

«وماذا حدث له؟» سأل رمضان.

«مات. لكنّه ترك لي هذه.» وقدّم الورقة. فتحها رمضان بحذر، فلم تكن فيها إلا كلمةٌ واحدة بخطٍّ مائل: «اصعد.»

نظر العجوز إلى الشاب طويلاً وقال: «ما اسمك؟»

«يوسف.»

«أنا أعرف جدّك. كان صديقي قبل أربعين سنة. افترقنا بعد خلافٍ تافه حول سباق حمام، ولم نلتقِ بعدها. وكنت أحاول أن أرسل إليه حمامةً كلّ سنة، ولا تصل.»

«لماذا لا تصل؟»

«لأنّه رحل إلى الإسكندرية، وكلّما أطلقتُ الحمامة إليه، كانت تعود. كنت أظنّ أنّه لا يريد أن يتلقّاها. لم أعرف أنّه لم يكن هناك.»

أخرج يوسف من حقيبته علبةً خشبيّة صغيرة، وفتحها. كان فيها أربعون خيطاً رفيعاً، كلّ واحدٍ منها ملفوفٌ برفق، وعلى كلّ خيطٍ تاريخ. «كان يحتفظ بها كلّ هذه السنين. الحمائم التي كنت ترسلها وصلت. كان يأخذ منها الخيط ويعيدها إليك. لم يكن يردّ لأنّه لم يعرف ماذا يقول.»

جلس رمضان على كرسيه الخشبي. غطّى وجهه براحتيه، ولم يقل شيئاً لدقائق. ثم قال بصوتٍ كاد لا يُسمع: «كنتُ أحمل لك في كلّ

خيطٍ اعتذاراً. وأنت لم تصل.»

«بل وصل،» قال يوسف. «كلّه. وقد جعلني أبحث عنك.»

في تلك الليلة بقي الاثنان على السطح حتى الفجر، يتبادلان الحكايات والشاي. ظهر القمر فوق مئذنة السيدة زينب، وارتجفت الحمامات في برجها كأنّها تحلم. وأخبر يوسف رمضان أنّ جدّه كان يحدّثه عنه دائماً، وأنّه كان يقول: «في القاهرة رجلٌ يعرف أن يرسل ما لا يُرسل.»

قال رمضان وهو يمسح عينيه: «هل تعرف ماذا أفعل حين لا أجد لمن أرسل؟»

«ماذا؟»

«أطلق الحمامة على أيّ حال. الرسائل التي لا عنوان لها أجمل ما في الدنيا. تجد دائماً من يحتاجها.»

فكّر يوسف قليلاً، ثم سأله: «وهل يمكنني أن أبقى؟»

لم يكن العجوز ينتظر هذا السؤال. نظر إلى الشاب، الذي كان يشبه صديقه القديم بحركة يديه وبالطريقة التي يضع بها رأسه جانباً حين يستمع. قال: «لو بقيتَ لوجدت ما لم تتوقّع. هذا البرج يحتاج لمن يعتني به حين أرحل.»

بدأ يوسف يتعلّم. صعد كلّ فجر، وتعلّم أن يعدّ الحمائم بأسمائها: «نجمة»، «ضحى»، «ريم»، «حور». وتعلّم أن يصفّر صفيراً يعرفه الحمام، وأن يعرف أيّ حمامةٍ تحمل رسالةً وأيّها تحمل صمتاً. وكانت أصعب مهمّةٍ أن يعرف إلى أيّ سطحٍ تنتمي الرسالة. قال له رمضان: «لا تسأل الحمامة عن العنوان. هي تعرف. أنت فقط ارفع يدك وأطلقها.»

وفي ليلةٍ قمراء صعد معه رمضان إلى حافّة السطح وأراه المدينة كلّها: مئذنةً تلمع، وأسطحاً متلاصقة، ونوافذ يلوح فيها شيءٌ من الحياة. قال: «كلّ نافذةٍ هنا تنتظر رسالةً من نوعٍ ما، حتى لو لم تعترف. ومهمّتنا ألّا نجعل أحداً ينتظر بلا جواب.» ثم أضاف مازحاً: «وألّا نتأخّر عن موعد التمر.»

وفي شتاءٍ رحل رمضان، مثلما يرحل الشيوخ: على كرسيّه، وسط الحمام، بعد أن صفّر صفيرته الأخيرة. وحين وصل يوسف في الصباح، وجد الحمام كلّه حوله، لا يطير ولا يهدل. ثلاثةٌ وستّون حمامةً صامتة. وعلى كتف رمضان حمامةٌ بيضاء جديدة لم يرها من قبل، في رجلها خيطٌ مطويّ.

فتح يوسف الخيط. لم تكن فيه كلمات، لكنّه شعر برائحة الشاي بالنعناع، وسمع ضحكةً قديمة، وأحسّ بيدٍ على كتفه. وعرف أنّه وصله ما لم يُرسَل أبداً: اعتذار صديقٍ لصديقه، وشكرٌ لابنِ ابنه، وسلامٌ من الغيب.

وكان يوسف يحتفظ في جيبه بخيطٍ واحدٍ لا يفتحه أبداً، هو الخيط الأخير الذي ترك له رمضان. يقول إنه سيفتحه يوم يفهم تماماً ما كان صاحبه يحاول قوله. وفي بعض المساءات، حين يهدأ الحيّ ويصفرّ النور فوق المئذنة، يُخرجه ويحدّق فيه طويلاً، ثم يعيده إلى جيبه مبتسماً، لأنه فهم أنّ بعض الرسائل تُقرأ بالاحتفاظ بها.

ما زال البرج قائماً فوق السيدة زينب. وما زال الناس يقولون إنّ من يفقد عزيزاً، وينتظر على سطح بيته بعد الغروب، قد ترى عيناه حمامةً بيضاء تقترب، تحمل ما لا يُقال. فإن رآها فليرفع يده كما يفعل يوسف، وليعلم أنّ في هذه المدينة من يُطلق الحمام لأجله.

— النهاية —

حمادة حامد محمود نور الدين

https://dakkan-alhikayat.netlify.app